عثرة المرض

الميتروبوليت بيرونيموس مطران لاريسا وتيرنافوس (اليونان)

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

عندما نستمع إلى طِلبات المسيحيين وأسباب صلاتهم، نرى أن السائد غالبًا هو الصحة. هذا الطلب المعلَن تحمله آلاف الأوراق التي تصل إلى المذبح المقدس في جميع كنائسنا. وفي حياتنا اليومية أيضًا، عندما تتطرّق الأحاديث إلى كل ما يحدث من حولنا، غالبًا ما ننتهي بالقول: "طالما أننا نتمتع بصحتنا، فسوف نتدبّر". إن طلب الصحة هو أولوية قصوى. هناك الكثير من الأشخاص ممن نظرتهم إلى الكنيسة مشوشة إذ يعتبرونها نوعًا من امتداد السحر. إنهم يعلنون صراحة أنهم يذهبون إلى الكنيسة حتى يحفظهم الله بخير، ويرون في النعمة الإلهية نوعًا من الحماية ضد أي نوع من الأمراض.

هنا تبدأ عثرتُهم. ما يبدو هو أن الطِلبات لم تُستَجَب لأن الكنائس لا تزال ملأى بالمرضى وما زال المسيحيون يمرضون، وفي النهاية يبدو أن كل هذه التضرعات من أجل الصحة الجيدة يتمّ تجاهلها. فلماذا، من ناحية، تروي الكنيسة قصص العديد من معجزات المسيح التي منحت الصحة للذين استفادوا منها، بينما يبدو، من ناحية أخرى، أن لا معجزات تحدث اليوم أو الظاهر على الأقل، هو أن إلهنا القدوس لا يحمي شعبه بشكل كافٍ. قد تكون الإجابة بسيطة للغاية. كيف يمكننا أن نطلب نفس الشيء كما حدث في الماضي، حين كان إيمان الناس الحقيقي والبريء يضخّم قلوبهم حتى أنه يدفعهم إلى الاعتراف به ولو على حساب دمائهم؟ لماذا نطالب بالمعجزات في حين أن أسلوب حياتنا ونوعية حالتنا الأخلاقية من شأنهما أن تمنعاها؟ لا ننسَينّ أنه إلى جانب الإيمان تتطلّب المعجزة الفضيلة أيضًا.

تقدم لنا الرواية الإنجيلية عن شفاء المسيح للمرأة المنحنية جواباً حيّاً ومختلفاً للسؤال الذي طرحناه أعلاه. فالوصف هو عن شفاء لامرأة كانت منحنية أي أنها لم تكن قادرة على الوقوف بشكل مستقيم ورفع رأسها. كل محاولاتها للوقوف بشكل صحيح كانت تسبب آلاماً رهيبة حدّت بشدة من نشاطها. لكن المرأة لم تخجل من منظرها بهذه الحالة. لم تتردد في تعريض نفسها للصعوبات. على وجه الخصوص، كانت مصرّة على الذهاب إلى المجمع لسماع ناموس الله وتفسيره.

من الشائع أن يؤثّر المرض ونتائجه اللاحقة على نفسية المريض بطريقة مؤذية، ما يؤدي إلى الشعور بالخجل من جسده وحرمانه من إرادة الحياة. إن لم يكن لدى المرضى احتياطي كافٍ من المرونة، وهو يرتفع بشكل أساسي بالإيمان بالله، فقد ينتهي بهم الأمر إلى ظروف مَرَضية، حتى إلى أوضاع مستفحلة، ما يؤدي إلى زيادة صعوبة الحياة، سواء بالنسبة لهم أو للقريبين منهم. من غير النادر أن يساهم المجتمع نفسه في تشجيع مثل هذه الأفكار السلبية، عندما يكون تحت تأثير الأفكار غير المقبولة التي تبجّل الإنسان الخارق، التي عبّر عنها نيتشه، وتتعامل مع المرضى بتفاهة وتحقير واعتبارهم عبئاً، عندما يغلق المجتمع عينه نفاقًا على الألم رافضاً تهيئة أعضائه للتعامل معه، فيما يعلن السعي العبثي إلى الرجاء البائس بالسعادة الكاملة على الأرض.

لكن المرأة المنحنية في الإنجيل لم تتصرف على هذا النحو. لقد اعترفت بإيمانها ورجائها بالله خاصة من خلال ما فعلته، أي من خلال النضال الجاد لحضور العبادة والاشتراك فيها واستمداد القوة منها. لا نعرف مضمون صلاتها، ولا أنواع الطلبات التي رفعتها ولا حتّى شكواها. في أغلب المرّات لا يكون المرضى هادئين أيضًا. عندما يكونون كذلك، فهذا يعني عادةً أن لديهم احتياطي من القوة الروحية التي تملي عليهم عدم إرهاق الآخرين بل حمل صليب المرض بشجاعة وبأنفسهم.

يسوع المسيح "طبيب النفوس والأجساد"

من ناحية أخرى، يتصرّف المسيح بشكل مختلف تمامًا. يرى المرأة المنحنية فيقطع خطبتَه، في إشارة إلى اهتمام الخالق بخلقِه. لم تتحدث إليه المرأة ولم تطلب شيئًا، لكن المسيح وضع يده على رأسها

وأخبرها أنها حرّة من ضعفها. لم يسأله أحد عن أي شيء، لكن المسيح عَمِل كفاعل خير على أي حال. هذه أيضًا هي الطريقة التي يتصرّف بها قديسونا اليوم، حتى تجاه الأشخاص الذين لا يعرفونهم والذين لم يطلبوا منهم شيئًا.

في حالات أخرى، رأينا المسيح يستفسر عن إيمان الشخص الذي يطلب معجزة. هنا، لا يفعل ذلك إذ لا حاجة له. كان صبر المرأة على المرض وما نتج عنه من نحتٍ لنفسها أكثر من شهادة كافية على اعتمادها الكامل على الله باعتباره الوحيد القادر ليس فقط على شفاء الجسد بل أيضًا على تقديس الروح. هذا هو السبب في أنّ الذي يعرف جيدًا أسرار قلوبنا وهو القادر أن يميّز المحبة النقية وغير الأنانية، يمكنه أن يميّز ليس فقط كل احتياجاتنا بل هو قادر أيضًا على التدخل لمصلحتنا الروحية ومنحِ كل واحد منا ما هو بالضبط يحتاجه.

إخوتي وأخواتي، غالبًا ما يتعامل قديسو إيماننا مع أيّ مرض في حياتهم على أنه زيارة من الله، وفرصة لصلاة أكثر حدة وحرارة، وحثًا على الصبر، وبالتالي، على أنه بركة. إنهم موجودون كمثالٍ لنا لمعرفة كيف يمكننا أخذ حوافز للفلسفة العملية واللاهوت من الظروف الصعبة مثل المرض. وبهذه الطريقة يمكننا أن نقترب أكثر من الله، ونفهم بشكل أفضل قدرته الإلهية وضعفنا البشري. يمكننا أن نقدّر أن وطننا الحقيقي هو ملكوت الله، وليس هذه الأرض، وأن ميراثنا الأبدي هو استرداد حضن إلهنا وأبينا. آمين.